

مأثور كلام البلغاء من المتقدمين ، وما استشهد به من شعر ومثثور ، وما أوردته في شعره من العماظ لقوية استعملت في معانيها الدقيقة مما لم يكن يجرى الا على أفلام كبار البلغاء ، أخذ ذلك عن كبار الأساتذة ، كما كانت البيهة التي عاش فيها بيهة أدبية ممتازة ، فقد كان الأسماء من نبي منقذ بمن يقصدهم الشعراء والأدباء ، كما أنهم كانوا علماء شعراء ، ومختمظ الأدب بكثير من أشعار أبيه وأعمامه وأجداده .

كان أسامة أثيرا لدى عمه أبي المسافر - إيطان حاكم «شيزر» ولما لم يكن له عقب اتخذ أسامة ابناله ، وكان يرى فيه الأمير المستقبل لشيزر ، ووارث الملك من بعده ، فكان يكامه من الأمور ما يتطلب شجاعة وجرأة . واشترك أسامة في المعارك التي دارت بين أسرته وبين الصليبيين دفاعا عن مدينتهم شيزر . وعش أسامة في تلك المدينة بين حب والده وعطف عمه ، غير أن هذا لم يلبث بعد أن رزق أولادا في آخر أمره ، أن دب الوهن والفتور إلى اللامعة التي تربطه بأسامة ، وبدلا من حبه وعطفه عليه ، بدأ الحسد والحقد بأخذان مكانها من قلبه ، خوفا على أولاده من مكانة أسامة ، وحذرا أن يشول الملك إليه دونهم ، فغضى أسامة إلى الموصل لدى عماد الدين زكي الذي صار أكبر أبطال الحروب الصليبية في وقته ، وأول خطر حقيقي دام للصليبيين ، فانتظم أسامة في جنده ، وحارب تحت قيادته في عدة معارك ، ولكنه لم ينس وطنه الأول شيزر ، عندما هاجمه الفرنج والروم ، سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨ م) ، فقد مضى إليه ، وأبلى بلاء حسنا في الدفاع عنه . وربما كان قد عزم على البقاء في شيزرين أهل الذين فقدوا والده سنة ٥٣١ هـ ، غير أن عمه أبا المسافر لم يرض عن مقام أسامة بشيزر ، فقد أيقن أنه أصبح خطرا على ملكه ، وأن ليس لأبنائه سلامة إذا ظل أسامة في شيزر ، فأمره وإخوته بالرحيل ، فغشتوا في البلاد ، وكان في ذلك المنير لهم ، فأنهم نجوا من الزلازل التي هدمت شيزر ، وقضت على نبي منقذ بأسرم وذهبت ملكهم سنة ٥٥٢ هـ .

مضى أسامة يوم أخرج من شيزر إلى دمشق ، وانحل بها كها معين الدين أنر ، واعتمد هذا الحاكم على أسامة في تصريف

أسامة بن منقذ

وشعره*

للاستاذ أحمد أحمد بدوي

- ١ -

في يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٤٨٨ هـ (يولية سنة ١٠٩٥ م) ولد أسامة بن منقذ في أسرة توارثت إمارة «شيزر» وهي مدينة في الشمال الغربي لحمة ، تبعد عنها خمسة عشر ميلا ، وتقع على هضبة يحيط بها نهر العاصي من جهات ثلاث ، وتنهض فيها قلعة شاذغة حصينه ، وكان لهذه القلعة قيمتها في عصر الحروب الصليبية ، لمرکزها الحربي الحصين ، ومكانها بين الولايات السورية ، فكانت مطمح الطامعين من أمراء المسلمين والصليبيين .

ولد أسامة لأب صالح ، يقضى وقته بين تلاوة القرآن ، والصيد في النهار ، ونسخ كتاب الله في الليل ، ووالدة شهيرة بالشجاعة ، والنخوة ، والأقدام ، وقد ترك والده منذ صغره يقتحم الأخطار ، ويركب الصعب من الأمور ، فلا ينهأ عن أن يعنى إلى حية يحز رأسها ، ويلقى بها في الدار ميتة ، وهو ثابت رابط الجأش ، ولا يحول بينه وبين معارعة الأسود بشيزر ، وقتل ما يصرعه منها ، وهكذا شب جريئا لا يهاب . ومما ساعده على ذلك أنه كان يشترك مع أبيه في رياضته المفضلة عنده وهي الصيد .

إلى جانب هذه النشأة التي تعد للحرب والنضال ، تلقى أسامة الثقافة التي كان يتلقاها الأمراء في ذلك العصر ، فدرس الحديث والأدب ، والفقه ، والنحو ، واللغة ، وحفظ الكثير من الشعر ، وأخذ من ذلك بنصيب واف ، يشهد له به كتبه ، وما ضمنت من أحاديث كثيرة ، متنوعة الأغراض ، ومن

* من مله ديوانه اتى بغير فرجا .

عاد أسامة إلى دمشق سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ومضت
عشيرته لتلحق به ، ولكن السفينة التي كانت تحملهم أصابها
عطب عند عكا التي كانت في يد الصليبيين ، فنهب الفرنج ما معهم
من المتاع ، وساموهم سوء العذاب ، حتى إذا وصلوا إلى دمشق ،
كانوا قد فقدوا كل ما حملوه معهم من مصر ، وكان لذلك أكبر
الأثر الأليم في نفس أسامة .

واتصل أسامة في دمشق بحاكمها نور الدين محمود ، أكبر
أبطال الحرب الصليبية في عصره ، وكثيرا ما أرسل إليه الوزير
المصري طلائع قصائد يحثه بها على أن يتوسط لدى نور الدين ،
حتى تجتمع كلمة سوريا ومصر على جهاد العدو المشترك ، ولكن
هذه القصائد لم تثمر ثمرتها . ويظهر أن كبر سن أسامة قد حال
بينه وبين الاشتراك في الوقائع الحربية التي شهدها نور الدين ! وإن
كان قد ساهم في بعضها ، فقد حدثنا أبو شامة في كتابه الروضتين
عما أبداه أسامة من ضروب البسالة في حصار قلعة حارم .

ويظهر أنه وجد بعد زهاء عشرين سنة قضائها في دمشق ، أنه
في حاجة إلى الراحة والبعد عن تكاليف السلطان وخدمة الملوك ،
فمضى إلى حصن كيفا ، وهناك عكف على البحث والدرس والتأليف .
وربما اختار أسامة هذا المكان لما كان فيه من مكتبات ضخمة
غنية . ولكن هذه العزلة التي ارتضاها أسامة قطعها عودة
صلاح الدين إلى دمشق ، وقد رأى فيه أسامة البطل المنقذ للبلاد ،
فمضى إليه ، واستقبله صلاح الدين استقبالا حسنا ، فقد كانت
تربته به سلات وثيقة عند ما كانا معا في بلاط نور الدين محمود ،
فأعطاه صلاح الدين داراً وإقطاعاً دارة ، وجائسة وآنسه وذاكره
في الأدب ، وكان يستشير به فيما يلزم به ، وإذا مضى إلى النزول
كانه ، وأخبره بوقائمه ، وكان صلاح الدين معجبا بشعر أسامة ،
مشغوفاً بقرته ديوانه ، وتأمل خواطره ، واستحسان روائع
قصائده ، وكان ولده مرهف جليس صلاح الدين ، وصاحبه في
الحل والترحال .

عاش أسامة في دمشق يشكو الكبر ، وقد ثقلت عليه الحياة ،
لطول عمره ، حتى إذا كان الثالث والعشرون من رمضان سنة ٥٨٠ هـ

الشئون السياسية ، وقد نجح أسامة في ذلك نجاحا رفع مكانته
في دمشق ، واستطاع في تلك الحقبة أن يتصل بالفرنج عن قرب
وأن يعرف الكثير من عاداتهم وأخلاقهم ، ولكن المقام لم يصف
لأسامة بدمشق . ويظهر من القصيدة التي أرسلها إلى معين الدين
أثر بمانته فيها — أن السر في نبوء المقام بأسامة يعود إلى رشايته
حملها الساعون إلى معين الدين فصدقه ، فأحرف قلبه عنه ، بدلنا
على ذلك قول أسامة :

بلغ أميرى معين الدين مألوكه من نازح الدار ، لكن وده أُمم
هل في القضية يا من فضل دولته وعدل سيرته بين الوردى علم
تضييع واجب حتى بعد ما شمرت به النصيحة والأخلاص والخدم
وما ظننتك تنسى حق معرفتى «إن المعارف في أهل النهى ذم»
ولا اعتقدت الذى بينى وبينك من ود ، وإن أجلب الأعداء ينصرم
لكن تقاؤك مازالو بنشهم حتى استوت عندك الأنوار والظلم
والله ما نصحو لئلا استشرهم وكلهم ذو هوى في الرأى منهم
كم حرفوا من مقال في سفارهم وكم سموا بفساد ضل سمهم
ويبدو من تلك القصيدة ، وما فيها من حياة وحرارة وقوة ، أن
أسامة كان يضر في قلبه قيما من الحب لمعين الدين ، وقد ختم
تقصيده بعد عتاب طويل بقوله :

فاسلم ، فاعشتلى فالدهر طوع بدى

وكل ما نالنى من يؤسه نعم
ترك أسامة دمشق ، وسافر إلى القاهرة ، فوصل إليها في
جمادى الثانية سنة ٥٣٩ هـ (نوفمبر سنة ١٤٤٤ م) في عهد الخليفة
الحافظ لدين الله ، وكان معه والدته وزوجه وأخوه محمد نجم الدولة ،
فأكرمته الخليفة أيما إكرام ، وأقطعته إقطاعا عاش به في رغد من
الحياة ، وخفض عيش . ولم يشأ أسامة في أول الأمر أن يزوج
بنفسه في الأحداث السياسية المصرية ، حتى إذا ولي الظاهر ألقى
بنفسه في خضم هذه الأحداث ، حتى ليروى المؤرخون أنه اشترك
في المؤامرات التي انتهت بقتل الوزير ابن السلا ، والخليفة
الظاهر ، ورأى أسامة أن يعود بعد هذه الخطوب والحوادث إلى
دمشق ، برعا أن الصلة كانت وثيقة بينه وبين الوزير المصرى
الجديد : طلائع بن رزيك .

٣ - كتاب المصا ، وقد أورد فيه شواهد نثرية وشعرية تتحدث عن المصا التي عرفت في التاريخ، وأثبت فيه أيضا كثيرا من شعره .

٤ - كتاب البديع، وقد جمع فيه ما تفرق في كتب العلماء المتقدمين، المصنفة في نقد الشعر، وذكر محاسنه وعيوبه، وقد انتقد هذا الكتاب ابن أبي الإصبع في كتاب بدائع القرآن، ومن الكتاب نسخة خطيه بدار الكتب .

٥ - كتاب المنازل والديار، قالت عنه دائرة المعارف الإسلامية، إنه ترجمة كتبها عن نفسه عام ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) في أثناء إقامته في حصن كيفا، والدافع له على كتابته زوال أغسطس سنة ١١٥٧ م، وهو يتضمن شواهد شعرية كثيرة عن المنازل والديار والأطلال والربيع والدمن والرسم وغيرها، والمتحف الآسيوي بلننغراد نسخة منه .

٦ - مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن الجوزي
٧ - مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي أيضا . والكتابان مخطوطان بدار الكتب .

٨ - تاريخ القلاع والحصون .

٩ - أخبار النساء

١٠ - التاريخ البدرى، وقد جمع فيه أسماء من شهد بدرا من الفريقين .

١١ - التجائر المربحة والمساعى النجحة .

١٢ - النوم والأحلام .

١٣ - الشيب والشباب .

١٤ - التأسى والتسلى .

١٥ - ذيل يتيمة الدهر .

١٦ - أخبار النساء .

١٧ - نصيحة الرعاة .

وهذه الكتب المشرة قد نسبها إليه مؤرخوه، أو أشار إليها في كتبه التي بين أيدينا .

(يتبع) أحمد محمد بدوي

(نوفمبر سنة ١١٨٨ م م) توفي أسامة بعد أن أربى على التسمين، ودفن في سفح جبل قاسيون، بدمشق .

-٢-

ترك أسامة عدة كتب عرفنا منها :

١ - كتاب الاعتبار الذي نشره المستشرق الفرنسي هرتونغ درنهورج، وقد سجل فيه أسامة ذكمانه، ومشاهداته، من معارك حربية، وأحداث سياسية، في مصر والشام، ويصور الوقائع التي دارت بينه وبين الفرنج في صدق وإخلاص، ويلقى على ما يرى، ويشيد بالبطولة، سواء أكانت من المسلمين أم من الصليبيين، ويدون ما يراه من أعمال الأبطال، ولو كانوا من صغار الجند، ويقيد الحوادث الفردية والفردية، وينقل إلينا ضوضاء المارك، ويصف صلة المسلمين يومئذ بالفرنج، في السلم والحرب، ويصور طبائع الفرنج وأخلاقهم وعقائدهم، ويحوى تأملات لأسامة بشأن طول العمر، وألحق بالكتاب قصصا ونوادير شاهد بعضها، وسمع بعضها من ثقة، وقيمة الكتاب في أن ما رواه من حوادث تاريخية ومعارك، سجلها بعد أن رآها، فكان فيها شاهد عيان، ولذا كان من أهم نتائج التاريخ لتلك الحقبة من عصر الحروب الصليبية، وقد كتبه أسامة وهو ابن تسعين سنة .

٢ - كتابات لباب الآداب، نشره الأستاذ أحمد محمد شاكر، وقد رتبته مؤلفه على سبعة كتب: الأول في الوصايا، والثاني في السياسة، والثالث في الكرم، والرابع في الشجاعة، والخامس في الأدب بمعنى كرم تخلق، وقسمه خمسة عشر فصلا، وهو يورد في هذه الكتب ما يتعلق بها، مما جاء في القرآن الكريم، ثم ما ورد من أحاديث تتصل به، ثم يورد المأثور من أقوال الحكماء . والكتاب السادس في البلاغة، يتحدث فيه عن إعجاز القرآن، وأورد جوامع كالم الرسول، ونماذج من كلام البلغاء، وجاء بكثير من محاسن الشعر الموجز البليغ الدال على مكارم الأخلاق، وقطعا لأعراض مختلفة من الشعر . والكتاب السابع في الحكمة نهج فيه سهج سلفه من الأبواب، والكتاب يدل على اطلاع واسع، وذوق دقيق في الاختيار .